اغراض الشعر العربي قبل الاسلام:ج١

مادة نصوص من الأدب العربي قبل الإسلام الصف الأول المستوى الثاني قسم اللغة العربية

ا.م.د.اياد سالم ابراهيم

من البديهي القول أن أغراض المديح ، والفخر ، والهجاء ، والرثاء والحكمة ، والغزل ، والوصف تشكل مرتكزات مهمة تستند إليها موضوعات الشعر المتداولة بين شعراء ما قبل الإسلام .

١- المديح :

المديح من الفنون الشعرية العريقة في القدم ، والمألوفة في شعر عصر ما قبل الإسلام ، وهو من الأركان الأربعة التي بُني عليها الشعر ، وعلى صفحته كان تسجيل القيم الخلقية والاجتماعية والقبلية في ذلك العصر ، والمديح عادة يقوم على الثناء ، وإطراء الممدوح ، وإسباغ النعوت الحسنة عليه ، والملاحظ أن هذا الغرض كان قد شكل علامة مضيئة في الحركة الشعرية في ذلك العصر ، وقد استثمره الشعراء في التعبير عن مشاعر الامتنان والإعجاب بما كان يقدمه الممدوحون من أفعال تنم عن خصال حميدة وسجايا فاضلة رضي عنها المجتمع ، وعدها مثلا أعلى ينبغي إذاعته بين الناس والتحلي به سلوكيا .

وأن أغلب المعاني التي دارت حولها معانيه تتجه نحو تعظيم كل ما يتصل بالممدوح ، فدخل الوصف ((كسلم أو وسيلة للوصول إلى المدح)) . فانصرفت عدة نماذج شعرية إلى تجسيم معاني الكرم لدى الممدوح لإظهارها بأفضل حال عن طريق تجسيدها ، ويطالعنا قول الأعشى الكبير في مدح قيس بن معد يكرب:

هـــو الواهـــب المائـــة المصـــطفا (م) ة كالنخـــــل زينهـــــا بـــــالرجن
وكـــل كميـــت كجـــذع الخصـــا (م) ب يرنـــو القنـــاء إذا مـــا صـــفن

استحضر الشاعر صورة النخل الذي نضج ثمره ، وحان قطافه في تشبيه عطايا ممدوحه من الإبل والخيل ليدلل على ضخامتها ، وطولها ، وارتفاعها وكمال صفاتها فممدوحه لا يهب إلا أجود العطايا

مال الشعراء إلى توظيف الفاظ الطبيعة في أشعارهم ليدللوا من خلالهاعلى طيب صفات ممدوحيهم ، وعراقة أصولهم ،فيرسم زهير بن أبي سلمى لنا صورة لممدوحه فيصفه بالكرم الذي ورثه عن اجداده جيلا بعد جيل فلنسمعه وهو يقول :

فمـــا يـــك مـــن خيـــر أتـــوه فإنمـــا توارثـــــه آبـــــاء آبـــــائهم قبـــــل
وهـــــل ينبـــت الخطـــــي إلا وشـــــيجه وتغـــــرس إلا فـــــي منابتهـــــا النخـــــل

فممدوحه لم يولد إلا على عراقة الشيم المتأصلة في أسرته ، ويقول الأعشى الكبير يمدح رجلا:

مـــا فـــوق بيتـــك مـــن بيـــت علمـــت بـــه وفـــــي أرومتـــــه مـــــا منبـــــت العـــــود

فالشاعر يشير إلى عراقة أصل هذا الرجل من خلال أصله الكريم ،

، ويستعين بسطام بن قيس بالحنظل ليصور من خلاله شجاعة ممدوحه فهو مر في حلوق أعدائه بقوله يمدح عنترة بن شداد :

أخلاقـــــه شـــــهد لطالـــــب رفـــــده لكنـــــه يـــــوم الكريهـــــة حنظـــــل

واختيار الشاعر للدلالة الذوقية تدل على إبداعه لكونها أقدر على استيعاب معاني القسوة والقوة والصبر التي تتفق وصفات الممدوح .

٢- الفخر :

الفخر لغة : هو التمدح بالخصال والافتخار ، وعد القديم .

أما الفخر في الاصطلاح الأدبي : ((فهو المدح نفسه إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه ، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار ، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار)) .

والفخر باب واسع انتشر في دواوين الشعراء ، وهو لم ينفرد غرضا مستقلا إنما كان مع بقية الأغراض التي تنضم عليها القصيدة الجاهلية ((وهو نافذة نطل فيها على مجموعة المُثل التي كان الجاهليون يعتزون بها ويحرصون عليها ، ولا شك في أن ادعاء هذه المثل ، والفضائل يدخل في باب الفخر كما أن نسبتها للآخرين يدخل في المديح))

سعى الشعراء في قصائد الفخر إلى التمدح بالذات الفردية أو الجماعية وهو ما يسند إلى الـ : (أنا) و (نحن) لإعلاء شأنهما .

ومن دواعي الافتخار الشجاعة والبطولة إذ سعى الشعراء إلى وصف قتلاهم وكيف تركوهم مضرجين بدمائهم ، فيستحضرون لذلك دلالات مستنبطة من خلال اللون كما في قول مهلهل بن ربيعة لما أدرك ثأر أخيه :

فإنـــي قـــد تـــركت بـــجيرا فـــي دم مثـــل العبير

بواردات

فالشاعر استحضر العبير في تشبيه دماء أعدائه ؛ لأن خروج دماء الأعداء يثير شعورا غامرا بالتشفي الذي هو صورة من صور الارتياح والبهجة ، كما يبعث التطيب بالعبير ذلك .

ويحرص بعض الشعراء على إبراز صفات أعدائهم كما بدت لهم في الحرب فينصفونهم إذ يرون فيهم البطولة كما يرونها عند أبطالهم ، وهذا دليل على واقعيتهم المتأتية من صدقهم في التعبير عن عواطفهم التي يحسونها تجاه ما يقع لهم . فيجعل بعض الشعراء من أعدائهم أسودا تستكن في الغابات الكثيفة ليضفي عليهم دلالة الشراسة والقسوة ؛ لأنها في هذه الأماكن أشد قسوة من غيرها كما في قول أوفى بن يعفر :

وجاء الأراقم لا ينثنون كأسد خوارج من بطن غاب

فجعل من أعدائهم أسودا في أماكن الشجر لتتساوى كفتاهما من حيث القوة بينهم ؛ لأنهم لو قاتلوا الضعفاء لكان ذلك ذما لهم لا فخرا ، فهم يبرزون قوة أعدائهم وشجاعتهم ؛ لأن إضفاء طابع الشجاعة على الخصم يعني بسالة المقاتل نفسه وتمتعه بالشجاعة والبطولة .

والبطولة الحقة ليست فقط قتالا وقتلا بل لا بد أن يزينها العفاف ، وهذه العفة تتجسد عند الشعراء الجاهليين في مقاييس يلزم الشعراء بها أنفسهم ؛ لأن الفخر أيضا يقوم على : ((الفضائل الاجتماعية التي أقرتها الحياة العربية)) منها بل وعلى رأسها الكرم ، كان الكرم يبعث في النفوس السعادة والاعتزاز والفخر ، ظل الفخر في ذلك الوقت تتجاذبه أقطاب كثيرة ومنها الكرم . ليبرز الشعراء فخرهم بأقوامهم وقت القحط والشدة إذ يتكفلون بإطعام الفقراء حين تجف المياه وتقل الزروع ليصبح كرمهم في مثل هذه الأوقات مفخرة كقول لبيد بن ربيعة :

نعطي حقوقا على الأحساب ضامنة حتى ينور في قريانه الزهر

فيبرز فخره بتكفلهم بالفقراء إلى أن يغاث الناس بنزول المطر وظهور النبت في حين يتكفل حاتم الطائي بإطعام الفقراء إلى أن ينكشف ورق شجر الطلح ويعم الخير بقوله:

وإني ليغشى أبعد الحي جفنتي إذا ورق الطلح الطوال تحسرا

وهذا يدل على عقلية الشعراء في استلهام صور الطبيعة التي تؤيد لهم أفعالهم وتزيدها حسنا وروعة وإبداعا .

وظل الفخر تتجاذبه معان أخرى منها أصالة النسب فتميزت هذه الأصرة بأن لها جذورا عميقة اعتمد عليها الشعراء في بيان مكانتهم ، فاستعانوا باستعارة المفردات البيئية ليدللوا على نزوعهم إلى أصلهم كقول المتلمس الضبعي:

وقد كان أخوالي كريما جوارهم ولكن أصل العود من حيث ينزع

جعل من نفسه عودا يرجع إلى أصل أبيه الطيب ، ويفخر عمرو بن معديكرب بأصله بأنه من أصل الفروع الطيبة.

٣- الرثاء :

وهو من الفنون التي تناولها الشعراء ؛ لكونه يعبر عن خلجات قلب حزين وفيه لوعة صادقة وحسرات حرى في بعض الأحيان ، ولذلك فهو من الموضوعات القريبة إلى النفس ؛ لأن الرثاء الصادق تعبير قلما تشوبه الصنعة والتكلف . والموت حقيقة وجودية تنال الأحياء كلها عدا الخالق سبحانه وتعالى ، والحزن على الموتى شعور ملازم لها ، والتعبير عن الحزن يتفاوت عمقا وصدقا بمقدار فجيعة الراثي وبحسب قدرته على التعبير عن مشاعره حيالها ، والرثاء قديم في أدبنا قدم هذا الأدب ((لأن العرب في جاهليتهم ولطبيعة حياتهم القائمة على الغزو احترفوا (صنعة الموت) وقل منهم من مات حتف أنفه ...)) .

ارتبط الرثاء بموضوع الحماسة والفخر حين لجأ الشعراء إلى رثاء قتلاهم الذين سقطوا في سوح القتال ليمجدوا بطولاتهم ، ومآثرهم وليكون داعيا من دواعي تأجيج حماس القوم للمطالبة بالثأر ، وخاصة إذا كان المرثي ممن قتل قتلاً، فإن قصائد رثائه تكون محملة بالتهديد وفيها إصرار على الأخذ بالثأر والفخر، وغالبا ما تدخل المبالغة عنصرا مهما من عناصر الرثاء لذلك أشركوا الطبيعة في تجسيد عنصر المبالغة في التعبير عن عاطفة الحزن ،فيجعل أبو دؤاد الإيادي في رثائه لكعب بن مامة الإيادي من قومه أسودا وسط الأشجار الملتفة ليدلل على شراستهم وقسوتهم بين الأشجار بقوله :

ورجال أبوهم وأبي عمر (م) وٌ ولعب بيض الوجوه جسام
وشباب كأنهم أسد غيل خالطت فرط حددهم أحلام

والجدير بالذكر أن الشعراء الجاهليين غالبا ما كانوا يربطون بين صورة ((الحزن الإنساني والأحزان الوجودية لبعض الكائنات الأخرى))، ومنها الحمامة التي ظل غناؤها ، وبكاؤها رمزا للحزن الأبدي . كما تشير قصة حزنها على فرخها الهديل الذي أكلته الجوارح فظل الحمام يبكيه طويلا ، فيستحضرون بعض الصور النباتية لتكون مأوى للحمامة كما في قول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

تذكرت صخرا إن تغنت حمامة هتوف على غصن من الأين تسجع

فالخنساء حين استحضرت صورة الحمام ، فلكونها ترتبط بالحزن ، وحينما هيأت الأغصان لها ، فلكونها ذات دلالة جمالية أولا ولإحساسها بارتباط الطيور بالأشجار التي تتخذها مألفا لها ثانيا ، ولتكون عنصر تحفيز لعواطف الحزن لديها ثالثا .

اختلف الباحثون في تفسير حقيقة كون الدعاء بالسقيا وما يصاحبها أهي للميت أم لأمر آخر ؟ فقد ذهب الدكتور نصرت عبد الرحمن إلى أن الدعاء بالسقيا إنما هو منصرف إلى صدى الميت لا للميت نفسه وتابعه الدكتور أنور أبو سويلم ، وأضاف إلى ذلك رأيا آخر إذ وجد ((أن الموتى يمارسون حياة عادية في القبر فيعطشون ويشربون)).

إلا أن ما يبدو لنا إن ظاهرة الدعاء بالسقيا وربطها بالنباتات والأزهار على قبور الموتى ما هي إلا نابع من إعزاز الميت ومحاولة لتخليد ذكراه ((ليبقى عهده غضاً من الدروس طرياً لا يتسلط عليه ما يزيل جدت ونضارته)) ، وتخصيص النباتات والأزهار ذات الرائحة الطيبة بالذات في دعائهم على القبور لم يأت إلا لإضفاء التكريم اللائق لمن يرثونه ، وبهذا يقول الدكتور نوري القيسي : ((وقد استعملت الأزهار الطيبة الرائحة كالفغو والريحان والحوذان في الرثاء وهم يذكرونها مصحوبة بالغيث المسبل الممتلئ بأريج عطرها وغيثها مكان المرثي وهذا أقصى ما يبتغونه للميت)) ، كما في قول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كلدة:

لا زال ريحان وفغو ناضر يجري عليك بمسبل هطال

٤- الهجاء :

يعد الهجاء من الفنون الشعرية الأصيلة ؛ لاتصاله المباشر بالنزاعات والصراعات القبلية في عصر ما قبل الإسلام .

((والهجاء نقيض المدح أو بالأحرى إنه الوجه الآخر السلبي له يعبر عن وجوه القبح واليأس ، إنه تجسيد لملامح الشر والاختلال ، والشعور بالنقص)). يعمد الشاعر فيه إلى سلب المهجو من فضائله النفسية. وتجريده من الصفات الخلقية الحسنة، ولا شك في أن الظروف التي أحاطت بالبيئة الجاهلية من صراعات ونزاعات كانت من أهم العوامل المثيرة والمحفزة لنشأة هذا الغرض ، فقد جاء لكشف دور الشاعر في ظل مجتمعه ، وما يقوم بينه وبين غيره من علائق إنسانية .

درج الشعراء منذ العصور الأولى على هجاء أعدائهم وخصومهم فدارت معانيهم حول كل ما يناقض مثل المجتمع وفضائله ، فما أن يبدأ الشاعر بالهجاء حتى يحاول جاهدا أن يجرد مهجوه من هذه المثل جميعا ، وأن يسخر منه ما استطاع ، حتى يحط من قدره بين الناس .

قد يكون الهجاء بدافع شخصي ((ويكون مثارة المنازعات الفردية والخلافات التي لا بد أن تنشأ من احتكاك الناس وتعارض مصالحهم في بيئة تقوم على القتل والنزاع في سبيل الحياة)) ، أو قد يكون بدافع قبلي ، فيأخذ مسلكا آخر فترى الشاعر هنا يستخدم كل ما يعرفه أو ما يسمعه من مخازي القبيلة ومثالبها في الماضي ، فيكون هجاؤه مصحوبا بنغمة الفخر الجماعي .

ومما لا ريب فيه أن توظيف الشعراء لمفردات الطبيعة قد دل على قدرة الشعراء في اختيار ما يتناسب مع هجائهم كقول عنترة بن شداد يهجو بنو العشراء:

سيأتيكم عني وإن كنت نائيا ... دخان العلندى دون بيتي مذود
قصائد من قبل امرئ يحتذيكم ... بني العشراء فارتدوا وتقلدوا

فيجعل الشاعر من تأثير قصائده كتأثير دخان شجر (العلندى) الذي يتصف بسرعة انتشاره ، وكثرته ، وبما يخلفه من آلام عند من يحيط بهم .

بينما يجعل بشر بن أبي خازم من أرجل أعدائه كعصي شجر الطلح ؛ لأن أغصانه لا تنبت إلا معوجة ليدلل على أنهم عرجان ولينتقص منهم بقوله:

لله در بني الحداء من نفر ... وكل جار على جيرانه كلب
إذا غدوا وعصي الطلح أرجلهم ... كما تنصب وسط البيعة الصلب

ويستثمر الأعشى الكبير من الشجر عيدانها في هجائه شيبان بن شهاب الجحدري بقوله:

فجروا على ما عودوا ... ولكل عادات إمارة
والعود يعصر ماؤه ... ولكل عيدان عصارة

فجعلهم يجرون على ما ألفوا من خنوع واستكانة فعصارة العود تنبأ عن نوعه ، إن كانت طيبة فما ينتج عنها إلا طيب وإلا فالعكس .